الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

"رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا"

قراءة في صرخة الندم

ثنائية آخر الأنفاس وأولى الحسرات

360 KNO SMART SCHOOLING
unicef
UNESCO United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK
AMIEE American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في غرفة صغيرة أطبق عليها صمت مهيب، يرقد رجل على فراش الموت، عيناه على اتساعهما شاخصتان لا تنظران إلى السقف الأبيض، بل تخترقان حجب الغيب إلى عالم لم يعد خفياً، فقد كشف الغطاء عنه فبصره الآن حديد، وقلبه يخفق بقوة، لكن ليس من شدة المرض، بل من شدة الندم الذي يعتصر روحه...

يتذكّر الآن مسترجعاً كلّما مضى كوضوح الشّمس في رابعة النهار، الصلوات التي أجّلها، والصدقات التي بخل بها، والأرحام التي قطعها، والكلمات الطيبة التي كتمها، والظلم الذي قد أوقعه على غيره، والدموع التي منعها من العين حين سمع القرآن...

في تلك اللحظة الحاسمة، تتفتّح شفتاه بصعوبة، وتخرج من أعماق قلبه صرخة مكتومة تحمل ألف حسرة وحسرة:

"رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ"

إلاّ أنّ الجواب يأتي قاطعاً حازماً لا تفاوض فيه: كلّا

هذا المشهد ليس محض خيال، بل هو ما رسمته الآية الكريمة في سورة "المؤمنون"

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ، لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ (99-100)

وهو ليس مجرّد وصف لحالة الميّت، بل هو مرآة صادقة تعكس حقيقة كلّ نفس بشرية، وهو دعوة عاجلة لكلّ حي أنْ يحاكي هذا المشهد الآن ويعيشه، في وقت هو ما يزال قادراً على تغيير نهاية قصته.

ولو توقّفنا عند كلمات هذه الآيات إدراكاً وفهماً، لوجدنا أنّ التّعمّق بكلمة "ارجعون" يكشف ما تحويه في طيّاتها من قصة كاملة من التفريط والإهمال، فالنّداء ليس مجرّد طلب للعودة، بل هو إقرار بالخطأ واعتراف بالتقصير، فالنّدم الحقيقي يأتي عندما تنكشف الحقائق، إلاّ أنّه يأتي متأخّراً، فكم من محطات في حياتنا اليومية، نمر بها ونعيشه فيها لحظات ندم مبكّر تشبه هذه الحالة، وكم مرة قلنا لأنفسنا: آه لو أنّني صليّت الفجر في وقته، ولو أنني برَرت بوالديّ قبل وفاتهما، ولو أنّني صدقت مع نفسي في التوبة؟

كلّها لحظات كانت فرصاً ذهبية للتّغيير قبل أنْ تصبح مجرّد أماني عاجزة.

إذاً فقبل أنْ نصل للحظات النّدم المتأخّر فلنجعل من هذه الآية منهاجاً عملياًّ في حياتنا، فنمرّن أنفسنا على التّخيّل الإيجابيّ في اللحظات الأخيرة من حياتنا من منطلق استباق الندم بالعمل، ولنسأل أنفسنا: ما الذي سنتمنّى تغييره؟ وما العمل الصالح الذي سنتمنّى فعله؟ ونقوم بتدوين لائحة ب"ما تركت"، فنكتب فيها الأعمال الصالحة التي نؤجلها باستمرار: صلاة، صيام، صدقة، صلة رحم، قراءة قرآن، طلب علم، ولنضع خطة عمليّة لتنفيذها تدريجياًّ، ولنقم بعمل مراجعة اليومية من منطق الرغبة بالبقاء في حالة من اليقظة الروحيّة المستمرّة، فنجعل نهاية كلّ يوم محطة للمراجعة: ماذا فعلنا اليوم من الصالحات؟ وماذا تركنا؟

ومن عمق كلمة "لعلَّ" تظهر حالة التردّد والضّعف التي تصيب الإنسان عند الموت، فهي تكشف عن حقيقة مؤلمة مفادها أنّ الذي يؤجّل العمل الصالح في الحياة، حتّى لو أُعطيت له فرصة أخرى، فإنّه قد يعود للتسويف والتردّد ذاته، فهذه طبيعة النفس البشرية التي تعتاد على التأجيل والتسويف، حتى تصبح هذه العادة جزءاً من شخصيتها، وهاهنا درس تربويّ عميق يحتّم علينا أنْ نستبدل لغة "لعلَّ" بلغة "الآن" في حياتنا فعوض قولنا "لعلّي أصلي الفجر غداً "، نقول: "الآن سأضع المنبه وأصلي الفجر غداً"، وعوض قولنا "لعلّي أتصدّق غداً"، نقول: " الآن سأخرج صدقة لأتصدّق بها غداً"، فهذا التحوّل في اللغة يعكس تحوّلاً في المنهج والسّلوك، من التّوسّل الضعيف إلى العزيمة القوية.

وفي جملة "فيما تركت" دلالة عميقة جداً، وإشارة إلى أنّ الإنسان يعلم الخير ولكنّه يتركه، ويعرف الصّواب ولكنّه يؤّخره، وهذا ما يجعل الندم أشدّ وأمرّ، لأنه ندم على التفريط في المعلوم وليس الجهل بالمجهول، وهذا يضعنا أمام مسؤولية فرديّة كبيرة تتمثّل في أنّنا نعلم الكثير من الخير، لكنّنا نتركه لأسباب مختلفة منها الكسل، الانشغال، حب الدنيا، والخوف من نظرة الناس.

وهنا تظهر الحاجة لتطبيق نهج جديد حياتنا من خلال القيام بحساب الترك، أيْ بأنْ نقوم بتحديد المتروكات من الأعمال الصالحة التي نعلم أنّنا تركناها، من مثل الصلوات في أوقاتها، وقراءة القرآن اليومية، والصدقات المؤجلة، وصلة الأرحام المقطوعة، وطلب العلم الشرعي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى اللّٰه، ومن ثمّ نقوم بتحليل وتحديد أسباب تركها وعوائق القيام بها، وهل هي حقيقيّة ام أعذار نختلقها؟ ومن ثمّ نضع خطّة عمليّة لتصحيح ما تركناه.

ومن كلّمة صغير مثل " كلّا" يغلق باب، ويظهر رفض قاطع من اللّٰه، فلا عودة بعد الموت، ولا فرصة أخرى لتصحيح الأخطاء، فقد ختم في هذه اللحظة باب التوبة بختم الموت، وهذا يعني أنّ الفرص محدودة، وأنّ الوقت له نهاية، وأنّ اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت هي حدود اللّٰه التي لا تتجاوز، وهنا درس ثمين يعلّمنا ألاّ نغترّ بطول الأمل، فنظن أنّ الفرص لا تنتهي، فنقول لأنفسنا: سأتوب غداً، أو ، سأبدأ بالعمل الصالح الشهر القادم، أو، سأصلح علاقتي مع اللّٰه العام القادم، فالآية تذكّرنا بأنّ "غداً" قد لا يأتي، وأنّ "الشهر القادم" قد لا يكون لنا نصيب فيه، لذلك فلنجعل من هذا الدرس منهجاً يومياً في حياتنا فنمدّ فيه جسراً من التوبة، من خلال استغفار الترك في نهاية كلّ يوم، بقولنا: "اللهم إنّي أستغفرك لكلّ صالح تركته لغيرك، وأتوب إليك من كلّ تقصير في حقك"، وتوبة فوريّة واستغفار دون تأجيل وفور وقوع الخطأ، والعمل الصالح الفوري كلّما خطرت على فكرة عمل صالح.

إنّ هذه الآيات الكريمة تلقي بظلالها على فكرة عميقة، ألا وهي فكرة الرجوع المستحيل بعد الموت، وفي الوقت ذاته تدلنا على رجوع ممكن ومطلوب في الحياة، وهو الرجوع إلى اللّٰه، والتوبة النصوح، وتصحيح المسار، والإقبال على العمل الصالح.

فهذا الرجوع المعنويّ يتطلّب؛ الإقرار بالخطأ كإقرار صاحب الآية بتقصيره، والعزم على التّغيير كما عزم على العمل الصالح، والمبادرة بالعمل وعدم التأجيل والتسويف، وكشف الأمل الكاذب والتوقّف عن التعلّق به، فهذا الزيف هو ما يجعلنا نؤجّل العمل الصالح بحجّة أنّ الفرص كثيرة والوقت طويل، فهو أمل خطير لأنه يُشعرنا بالراحة الكاذبة، ويجعلنا نعيش في وهم أنّ الغد سيكون أفضل من اليوم، وتحويل الأمل إلى عمل من خلال خطة زمنية محددة للتوبة والرجوع، ومساءلة ذاتية يوميّة، ورفقة صالحة، وتنفيذ قواعد للرجوع الفوريّ دون تسويف، ومنها؛ رجعة الصلاة، فإذا مررت بمسجد وقت الصلاة، ادخل فوراً، واجعل صوت الأذان إشارة للرجوع الفوري إلى اللّٰه، ورجعة الصلة، فإذا تذكرت قريباً لم تزره، أو صديقاً لم تطمئن عليه، بادر بالاتصال أو الزيارة، ورجعة الحقّ، فإذا تذكّرت مظلمة أو حقاًّ لأحد عندك، بادر بردّه فوراً، ولا تنتظر الوقت المناسب، ورجعة العلم، فإذا مرت بك آية قرآنية أو حديث شريف، توقّف وتأمّل واتّعظ.

ختاماً،

ففي الآية "رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ"رسالة تربويّة لا تصف لنا حالة ميّت وحسب، لكنّها تقول لنا:

"لا تنتظروا حتى تقولوا 'ربّ ارجعون'، بل ارجعوا إلى اللّٰه الآن وأنتم أحياء"

فالرسالة واضحة تطلب منّا عدم تأجيل العمل الصالح، وعدم الاغترار بطول الأمل، وعدم ترك عمل الخير، أو انتظار اللحظة المناسبة، فالحياة فرصة واحدة، والموت حقيقة مؤكّدة، والحساب آتٍ لا محالة، فلنجعل من هذه الآية دستوراً في حياتنا، ولنبدأ العمل الصالح من الآن، قبل أنْ نصبح من الذين يقولون:

"رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت".

اللهم لا تجعلنا من الذين يقولون هذا القول، واجعلنا من الذين يعملون الصالحات في حياتهم قبل مماتهم، وتوفّنا مسلمين وألحقنا بالصالحين.